كلية الآداب
قسم التاريخ
شعبة التاريخ الإسلامي

الحياة الاجتماعية في الحجاز في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

١هـ/٦٢٢م ـ ٤١هـ/٦٦١م

رسالة مقدمة من الطالب

فيـــصل محـــمد العـــلي

لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إشـــراف

الأستاذ الدكتور
فتحي عبد الفتاح أبو سيف
أســـتاذ التـــاريخ الإســـلامي
جامعـــة عين شمـــس

الأستاذ الدكتور
عبد المحسن طه رمضان
أستاذ التاريخ الإســـلامي المساعد
جامعـــة عين شـــمس

القـــاهرة
١٤٣١هـــ / ٢٠١٠م

أولاً : جغرافية الحجاز"

تتميز شبه الجزيرة العربية بموقع استراتيجي هام بحكم موقعها الممتاز بين قارات العالم القديم (آسيا ، أفريقية ، أوربة) ، ووقوعها عند نقطة التقاء الحضارتين السائدتين في ذلك الوقت وهما الحضارة الفارسية وحضارة الروم ، تحدها من جميع جهاتها حدود طبيعية ، إذ يمتد الخليج الفارسي من جهة الشرق ، وبحر القلزم من الغرب ، وبحر العرب من الجنوب ، وبادية الشام من الشمال (الشكل ١) ، وقد اختلفت أجزاء شبه الجزيرة فيما بينها من حيث طبيعتها ، فالقسم الأكبر منها بادية ، وتوجد فيها بعض الأودية على أطرافها ، وقد قسم الجغرافيون العرب جزيرتهم تقسيماً مسايراً لطبيعتها الجغرافية إلى خمسة أقسام أو أقاليم وهي: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن[١] . (الشكل ٢) .

ويعتبر إقليم الحجاز وهو المنطقة الغربية ، من أهم أقاليم شبه الجزيرة العربية على الإطلاق لاسيما من الناحية الدينية ، بما احتواه من مقدسات ومشاعر دينية ، واحتضانه مدينتي مكة المكرمة مهد الرسالة النبوية و المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية الأولى ، وفي الماضي تلاقت فيه الوثنية واليهودية والنصرانية وعاشت على أرضه جنباً إلى جنب رغم التناقض الذي كان بينها[٢] ، فضلاً عن ذلك فقد امتاز هذا الإقليم بأهمية اقتصادية كبيرة ، إذ يخترقه أحد طرق التجارة الرئيسية الذي كان يربط مابين مدن الشام والعراق ومصر من جهة وبين اليمن والمناطق الجنوبية لشبه الجزيرة العربية من جهة أخرى [٣].

والحجاز في اللغة هو الحد الفاصل ، أي الفاصل بين شيئين [٤] ، أما كمصطلح جغرافي فقد كان منطوياً على شيء من التماوج ، منتشراً حيناً ومنحسراً حيناً ، وربما متداخلاً مع إقليم أو أكثر في شبه الجزيرة العربية أحياناً أخرى مما حال دون استقرار حدوده لدى الجغرافيين العرب والمسلمين ، فاختلفت وتعددت آرائهم حول سبب تسميته وتحديد موقعه وتبيان حدوده ، فقد رأى

---

١ ـ الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، ط١، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٨٥ ، أحمد الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، دار الفكر العربي١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م ، ص١٣ .

٢ ـ أحمد الشريف ، الحجاز قبيل ظهور الإسلام ،ط١، مطبعة جامعة الملك سعود ، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩م ، ص٢١.

٣ ـ الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ، ص١١ـ١٢ ، أحمد الشامي ، تاريخ العرب والإسلام ، ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ /١٩٨٥م ، ص ٨٧ .

٤ ـ ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، (د، ت) ، ج٩ ، ص٧٨٥ .

البعض أن الحجاز سمي حجازاً لأنه فصل بين الغور(غور تهامة) والشام وبين البادية [١] . ورأى البعض الآخر: إن الحجاز هو الجبال الحاجزة بين نجد وتهامة [٢] .

وقيل إن الحجاز هو ما حجز بين نجد و السراة ، وبذلك اعتبر الحجاز متميزاً عن السراة وواقعاً في شرقيها كما يفصلها عن نجد ، ومن المعلوم أن سلسلة جبال السراة تمتد من أقصى جنوب الجزيرة إلى شماليها ، تاركة سهول تهامة الضيقة في الغرب وهضبة نجد في الشرق ، وأن هذه السلسلة تكون مرتفعة متصلة في الجنوب ، ثم تنخفض وتتقطع في الوسط والشمال[٣] ، ويحدد الاصطخري (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م) [٤] الحجاز بأنه : ما كان من حد السرين[٥]إلى قرب مدين راجعاً في حد المشرق على الحِجرِ إلى جبل طيء إلى بحر الحجاز .

وقد قسم الجغرافيون هذا الإقليم إلى قسمين هما :

١ـ سراة عسير :

وهي المرتفعات الجنوبية ، وهي أكثر ارتفاعاً من الأجزاء الشمالية ، إذ يتراوح ارتفاعها بين ١٨٠٠ م و ٣٠٠٠ م فوق سطح البحر .

٢ـ سراة الحجاز :

وتمتد شمال المرتفعات السابقة ، وهي تفوق سابقتها في الامتداد إلا أنها أقل ارتفاعاً ، إذ يبلغ متوسط ارتفاعها ٩٠٠م فوق مستوى سطح البحر ، ويقل الارتفاع كلما اتجهنا شمالاً[٦] .

ومما سبق يتبين أن معظم هذه الآراء وهذه الاختلافات ناتجة عن تأثر الجغرافيين بالأمور السياسية ، فكانت معظمها قائمة على أساس إداري لا جغرافي ، وقد أدى هذا الاختلاف في تحديد

---

١ ـ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر، بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، ج٢، ص٢١٨ .

٢ ـ الفاكهي ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، تحقيق ، عبد الملك عبد الله ،ط٢ ، دار خضر- بيروت ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ،ج٣، ص٣٩ ، البكري ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق : مصطفى السقا ، ط٣ ، عالم الكتب ، بيروت ،١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ج٣ ، ص٨٠٥ .

٣ ـ الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص١٨٨.

٤ ـ المسالك والممالك ، ص٦.

٥ ـ **السرين :** هي بلدة قريبة من مكة على ساحل البحر لأحمر بينها وبين مكة أربعة أيام أو خمسة قرب جدة . (الحموي ، المصدر نفسه ، ج٣،ص٢١٩) .

٦ ـ عبدالله يوسف الغنيم ، أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة ،الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م ، ص٣٦ ـ ٣٧ .

امتداد الحجاز إلى الاختلاف في تحديد المدن التي يضمها ، وأخيراً يمكن القول في تعريف هذا الإقليم (الحجاز)على أنه الشريط المرتفع ، المعروف بجبال" السراة " ، الممتدة بمحاذاة البحر الأحمر، من العقبة (أيلة) في الشمال حتى عسير في الجنوب[١] ، ويتماشى مع هذا التحديد ما حدده المسعودي(ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) [٢] بقوله : " إنه حاجز بين اليمن والشام والتهائم" .

يمتد الحجاز من الشمال إلى الجنوب سبعمائة ميل (حوالي ١١٢٠ كيلو متراً) طولاً ، كما يمتد عرضه من الشرق إلى الغرب مائتين وخمسين ميلاً (حوالي ٤٠٠كيلو متر) ، وتعد جبال السراة العمود الفقري لشبه جزيرة العرب ، ولذلك جعلها الجغرافيون المسلمون قاعدة لتقسيماتهم ، وهي ليست على ارتفاع متناسب فهي تختلف من مكان لآخر ولكنها بصفة عامة مرتفعة في الشمال ، منخفضة في الوسط ، ثم مرتفعة مرة أخرى عند اقترابها من اليمن [٣] .

ـ أودية الحجاز وواحاته :

في الحجاز أودية تسيل من الحرار[٤] باتجاه الشرق إلى نجد وباتجاه الغرب إلى تهامة ثم البحر الأحمر، ومن أهم هذه الأودية وأعظمها **وادي إضم**[٥] الذي يبدأ من حرة خيبر ويسير نحو الجنوب الغربي حتى يقارب يثرب ثم يتجه صوب الشمال والغرب حتى يصب في البحر الأحمر[٦] ، أما **وادي الصفراء**[٧] فهو واد كبير وماؤه عيون كلها وهو فوق ينبع مما يلي المدينة، وماؤه

---

١ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٠٤ ، أحمد الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ﷺ ، ص١٣

٢ ـ مروج الذهب ، تحقيق مصطفى السيد بن أبي ليلى ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠م ، ج١ ، ص١٩٤ .

٣ ـ جواد العلي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٤، دار الساقي ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ج١ ، ص١٤٤، أحمد الشريف ، المرجع نفسه ، ص١٩.

٤ ـ **الحرار :** هي اللابة أرض ذات حجارة سود نخرة، كأنها أحرقت بالنار، ويكون ما تحتها أرضًا غليظة، من قاع ليس بأسود، وإنما سوّدها كثرة حجارتها (ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٥ ، ص٣) .

٥ ـ سمي بوادي إضم لانضمام السيول به واجتماعها فيه . (ابن شبه ، تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق ، علي محمد دندل وياسين سعد الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ج١، ص١١٠) .

٦ ـ ياقوت الحموي ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢١٥ ، عماد على طلبة ، الأوضاع السياسية والحضارية للقبائل الحجازية وتطورها من قبيل الإسلام إلى نهاية عصر النبوة ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة أسيوط ،١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ص٧

٧ ـ **وادي الصفراء :** كثير النخيل والزرع يسكنه الأنصار وقبيلة جهينة . (البكري ، معجم مااستعجم ، ج٣ ، ص٨٣٦) .

يجري إلى ينبع[١] وحول الوادي قناة وضعاضع (جبال صغار)[٢] .أما **وادي القرى**[٣] فيمر به طريق القوافل القديم ، الذي كان شرياناً من شرايين الحركة التجارية في العالم القديم [٤] ، وهناك أيضاً **وادي العقيق**[٥] ففي بلاد العرب توجد أربعة أعقة[٦] أشهرها في الحجاز العقيق الأكبر والعقيق الأصغر في يثرب ، أما واحات الحجاز فهي متفرغة منها الحويط "فدك " وخيبر ووادي فاطمة " مرالظهران " والصفراء[٧] .

وتبلغ **جبال الحجاز** أقصى ارتفاع لها في الجنوب حيث تتساقط الثلوج على قممها ، بينما تبلغ أقل ارتفاع لها عند دنوها من مكة ، حيث يبلغ ارتفاع جبل كرا بين مكة والطائف مائتي متر ، بينما تبلغ جبال الطائف ستمائة متر ، ومن جبال الحجاز المشهورة **جبل رضوى** بين المدينة وينبع ، وقد قيل عنه الاصطخري[٨] : أنه جبل منيف ذو شعاب وأودية ، وأنه كثير المياه والأشجار.

ـ مدن وقرى الحجاز:

يضم الحجاز عدة مدن وقرى ، لعبت الاعتبارات الجغرافية والدوافع الاقتصادية دوراً كبيراً في نشأتها وتطورها ، أهمها :

---

١ ـ **ينبع :** على يمين جبل رضوى لمن كان منحدراً من المدينة على البحر ، على بعد ست مراحل من المدينة . (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥، ص٤٥٠) .

٢ ـ الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص٣٦٢ ، ياقوت ، المصدر نفسه ،ج٣ ، ص ٤١٢

٣ ـ **يقع ما**بين تيماء وخيبر ، وسمي وادي القرى لأن الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة ، ويقال أنه ليس بالحجاز اليوم بلد أجل وأعمر وآهل بالسكان وأكثر أتجاراً وأموالاً وخيرات بعد مكة من هذا ، وعليه حصن منيع ، و به نخيل والغالب عليه يهود .(المقدسي ، أحسن التقاسيم ، تحقيق غازي طليمات ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ،١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ج ١، ص٢٩ ، ياقوت ، المصدر نفسه ،ج ٤، ص٣٣٨).

٤ ـ ياقوت ، المصدر نفسه ، ج ٤، ص٣٣٨ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، تحقيق عبد القادر زكار ،(د،ط) ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٤٠٢هـ /١٩٨١م . ،ج٤ ،ص ٢٩٦ .

٥ ـ يقال لكل مسيل ماء شقه ماء السيل في الأرض ووسعه : عقيق . (الأزهري ، تهذيب اللغة ، تحقيق محمد عوض مرعب ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م . ، ج١، ص٤٩) .

٦ ـ **الأعقة الأربعة هي :** عقيق اليمامة وهو لبني عقيل فيه قرى ونخل كثير ، وعقيق آخر تتدفق ماءه في غور تهامة ، فضلاً عن العقيقان الأكبر والأصغر الذي يقعان في يثرب . (ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٤، ص١٤٠) .

٧ ـ ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٣، ص٤١٢/ ج٤، ص٦٣ ، ابن الضياء، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، تحقيق علاء إبراهيم ، أيمن نصر، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م ، ص٢٤٣ .

٨ ـ المسالك والممالك ، ص٩ .

ـ مكـــــة [١] :

تقع في وادٍ ضيق ، على بعد ٧٥ كم من ساحل البحر الأحمر ، يبلغ طول الـــوادي مـــن الشمال إلى الجنوب حوالي ميلين ، وعرضه حوالي ميل ، أما مساحته فتبلغ حوالي عشرة أميـــال مربعة ، وتحيط بهذا الوادي جبال ذات صخور بركانية من أهمها : جبل أبو قبيس الذي يحد مكـــة من جهة الشرق[٢] و جبل فاضح[٣] و ثور[٤] والمطابخ[٥] وأجياد[٦] ....

وهي منطقة جدباء شديدة الحرارة ، قال عنها المقدسي[٧] : ويكون بالحرم حـــرٌ عظـــيم وريح تقتل . كما أنها كانت قليلة المياه ، وأن الناس كانوا يشربون من آبار خارج الحـــرم كبئـــر خم[٨] ، واليسيرة[٩]، فقد كانوا يحملون مياه هذه الآبار في المزد والقرب على الجمال ، ثم يسكبونه في حياض الكعبة [١٠].

---

١ ـ **مكة :** كان هناك خلاف حول سبب تسميتها ، قيل سميت بهذا الاسم لأنها تمك الجبابرة ومن ألحد فيها . (الأزهري ، تهذيب اللغة ، ج٩ ، ص٣٤٤ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٨١) . وقد عرفت بأسماء عديدة ، منها : أم زحم ،البلد الأمين ، البلدة ، معاد ، القادسية ، النابية ، الباسة ، كوثى ، بكة ، أم القرى ، البيت العتيق ، الحاطمة ،(البكري ، معجم ما استعجم ، ج١، ص٢٧٠ ، تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي ، الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة ، تحقيق علي عمر ، ط١، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، ص٢٩) .

٢ ـ اليعقوبي ، البلدان ، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢ م ، ص٣٤ ، ياقوت ، المصدر نفسه ، ج١، ص٨٠.

٣ ـ وهو جبل قرب مكة ، ويذكر أنه سمي بهذا الاسم ، لأن جرهم وقطوراء (كانوا أهل مكة وهم أبناء عم) تنافسوا على الملك ، فتداعوا للحرب فالتقوا في فاضح واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانتصرت جرهم على قطوراء وأخرجتهم من الحرم وتناولوا النساء ففضحن ، فسمي بذلك فاضح . (ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق محمد فهمي،المكتبة التوفيقية ،القاهرة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م ج١ ، ص٢٤١ ، ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٣١) .

٤ ـ جبل بمكة في غار النبي ﷺ المذكور في القرآن الكريم . (البكري ، المصدر نفسه ، ج١، ص١٦٧) .

٥ ـ سمي بهذا الاسم ، لأن مضاض بن عمرو الجرهمي نحر فيه وطبخوا القدور عندما انتصر على قطوراء . (الأزرقي ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، (د،ط) ، دار الأندلس للنشر ، بيروت ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، ج٢، ص٢٧١) .

٦ ـ أحد جبال مكة ، غربي المسجد الحرام ، في رأسه منارة يذكر أن أبا بكر الصديق ﷺ أمر ببنائها ينادي عليها المؤذنون في رمضان . (الحميري ، الروض المعطار ، ص١٢) .

٧ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ج١، ص١٠٥ .

٨ ـ **بئر خم** :حفرها كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، ويقال أن هذا البئر كان لبني مخزوم (الأزرقي ، المصدر نفسه ،ج٢ ، ص٢١٤) .

٩ ـ **بئر اليسيرة** : حفرها لؤي بن غالب بن فهر خارج الحرم . (البلاذري ، البلدان وفتوحها وأحكامها ، تحقيق أيمن عرفة ، (د،ط) ، المكتب التوفيقية ، القاهرة ،(د،ت) ، ص٧٨) .

١٠ ـ ابن الضياء ، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة ، ص٦٧ ، الحميري ، المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

ولما كانت مكة في وادٍ غير ذي زرع ، فقد كان هذا سبباً رئيسياً في اعتماد أهل مكة على غيرها في حياتهم المعيشية وفي أقواتها ، فقد أصبح أهل مكة يعتمدون على التجارة وعلى الضرائب التي تجبى من القوافل التجارية وما كان ينفقه الحجاج في مواسم الحج [١] .

ـ يثرب[٢] :

هي المدينة الثانية بعد مكة في الحجاز ، تقع شمال مكة بنحو ٣٠٠ميل (حوالي ٤٨٠ كم) ، وترتفع عن سطح البحر بحوالي ٦٠٠م ، ويحد يثرب من جهة الشرق بقيع الفرقد ، ومن الجنوب قرية قباء والفرع ، ومن الغرب والجنوب الغربي وادي العقيق ، ومن جهة الشمال جبل أحد [٣] ، وهي تمتاز بخصوبة أرضها ووفرة مياهها ، حيث تكثر فيها الأودية التي تسيل بعد تساقط الأمطار أهمها وادي العقيق الكبير والعقيق الصغير[٤].

وقد هيأ مناخ يثرب المعتدل بالإضافة إلى توفر المياه وخصوبة التربة إلى اشتغال سكانها بالزراعات المختلفة من خضروات وفواكه[٥]، بالإضافة إلى ذلك عمل بعض أهلها بالصناعة ، كصناعة الأدوات الزراعية وصناعة السيوف والدروع والصياغة لاسيما يهود بني قينقاع [٦] كما عمل بعضهم بالتجارة ، فكانت من أسواقها المشهورة سوق بني قينقاع وسوق زبالة شمالي غربي المدينة...وغيره ، ولم تقتصر تجارتهم على التجارة الداخلية وإنما توسعت لتشمل التجارة الخارجية خصوصاً مع الشام والعراق وأهل مكة [٧] .

---

١ – Slimane Zeghidour ’ La vie qutidienne la Mecque de Mahomet a nos jours ’ Paris ’ 356 – 359 p .

٢ ـ **أسماء يثرب :** سميت بيثرب نسبة إلى يثرب ابن قانية من بني إرم بن سام بن نوح لأنه أول من نزلها . وأطلق عليها فيما بعد اسم بالمدينة بالإضافة إلى أسماء أخرى مثل : طيبة ، طابة ، المسكينة ، ....(ابن شبه ، تاريخ المدينة المنورة ، ج١، ص١٠٤، المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٣٤، ياقوت ، معجم البلدان ،ج٥، ص ٤٣٠) .

٣ ـ البكري ، المسالك والممالك ، ج١، ص٨ ، ياقوت الحموي ، المصدر نفسه ، ج٥، ص٨٢ .

٤ ـ اليعقوبي ، البلدان ،ج ١، ص٣٣.

٥ ـ ابن شبه ، المصدر نفسه ، ج٢، ص١٠٨ـ١٠٩، عبد العزيز سالم ، تاريخ الجزيرة قبل الإسلام ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩م ، ص٣٣٨ .

٦ ـ إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، ط١ ، مكتبة النافذة ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م ، ص٣٢.

٧ ـ ابن شبه ، المصدر نفسه ، ج١، ص١٨٤ ، جواد العلي ، المفصل ، ج٩، ص٢٤ .

ـ الطائف [١]:

وهي مدينة صغيرة ، تقع على ظهر جبل غزوان من جبال السراة على بعد ٧٥ ميلاً (١٢٠ كم) إلى الجنوب الشرقي من مكة ،على ربوة مرتفعة عن سطح البحر ٥٠٠٠ قدم (حوالي ١٥٠٠م) [٢] .

والطائف تقسم قسمان : القسم الأول يسمى وادي وج تسكنه ثقيف ، و القسم الآخر يسمى الوهط[٣] ، وهي تمتاز بخصوبة أرضها ووفرة مياهها وطيبَةِ هوائها ، قال عنها المقدسي[٤] : شامية الهواء باردة الماء لذلك كانت مصيفاً لأهل مكة .

وقد امتلك أثرياء مكة المزارع الخاصة بهم في الطائف ، منهم عمرو بن العاص[٥]الذي كان يمتلك مزرعة كرم كبيرة بالوهط ، كلفته ١٠٠٠ درهم ثمناً لخشب عرائش العنب ويبلغ عددها ١٠٠٠ عريش[٦] وعتبة وشيبة ابني ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف اللذان امتلكا بستاناً كبيراً فيها [٧]، كما كان لأبي أحيحة سعيد بن العاص[٨] والعباس بن عبد المطلب أرض بالطائف[٩] . هذا

---

١ ـ **تسمية الطائف :** كانت الطائف تسمى وج نسبة لواد فيها يدعى بهذا الاسم ، فلما حصنت وبنى سورها سميت الطائف.(البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٦٦، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤،ص٩ ، ابن عراق ، نشر اللطائف في قطر الطائف ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٣٣، تاريخ ، ص٨).

٢ ـ الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٨ ، الحميري ، الروض المعطار ، ص٣٧٩ .

٣ ـ ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٩ .

٤ ـ أحسن التقاسيم ، ص ١٠١،

٥ ـ **عمرو بن العاص** بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم ويكنى أبا عبد الله هاجر إلى رسول الله ﷺ مسلماً في أوائل سنة ٨هـ مرافقاً لخالد بن الوليد وحاجب الكعبة عثمان بن طلحة ففرح النبي ﷺ بقدومهم وإسلامهم وأمر عمرًا على بعض الجيش استعمله على غزوة ذات السلاسل وبعثه يوم فتح مكة إلى سواع صنم هذيل فهدمه ... . (الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي ، ط٩، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج٣،ص٥٥، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، ج٧ ، ص٤٩٣) .

٦ ـ الذهبي ، المصدر نفسه ، ج٣،ص٧٤، نادية هاشم محمد صقر ، تاريخ مدينة الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، رسالة ماجستير ، قسم تاريخ ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٤٣.

٧ ـ ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق عادل أحمد الرفاعي ، ط١، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، ج٤ ، ص٦ .

٨ ـ **سعيد بن العاص** بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . (الذهبي ، المصدر نفسه ، ج٣، ص٤٤٤) .

٩ ـ البلاذري ، المصدر نفسه ، ص ٦٨ ، ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمري ،(د.ط) ، دار الفكر ، بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ، ج٦ ، ص١٢٩ـ١٣٠ .

وقد كان للطائف علاقات وصلات وثيقة مع يثرب حيث كانت الطائف تستقدم أشخاصاً من يثـــرب لبناء الآطام [١] .

أما **قرى الحجاز** تتمثل في قرية **خيبـــر**[٢]، **تبوك**[٣] ، **تيماء**[٤] **الحجر**[٥]، **فدك**[٦] ، **الجحفة**[٧] .

ـ المناخ :

تختلف مناطق الحجاز من الناحية المناخية كما تختلف من الناحية الطبيعية ، فقد كانت هناك مناطق جدباء شديدة الحرارة ، شحيحة المياه ، محاطة بالجبال ، يعيش أهلها على ما يجلب إليهـــا من الخارج كمدينة مكة ، وهناك مناطق أخرى تجود فيها التربة وتنزل فيها كميات من الأمطـــار تساعد على قيام الزراعة كمدينة يثرب، فقد أدى هذا التنوع المناخي إلى أن تكون هنـــاك حركـــة تجارية بين مدنه (الحجاز)من جهة وبين مدن أخرى من جهة ثانية ، مثال على ذلك إنتاج يثـــرب الزراعي المنوع من فواكه وقمح .. كان له دور كبير في التجارة الداخلية ، فضلاً عـــن التجـــارة الخارجية مع الطائف واليمن [٨].

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، تحقيق خيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤م ، ج١، ص٥٠٩.

٢ ـ هي عبارة عن حصن تبعد نحو ٦٠ ميلاً شمال المدينة المنورة لمن يريد الشام ، وتشمل خيبر سبعة حصون ومزارع ونخيل كثيرة وحصونها هي حصن ناعم أو الغموض وحصن أبي الحقيق وحصن الشق وحصن النطاه وحصن السلالم وحصن الوضيح وحصن الكتيبة.(ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٠٩ ، سلام شافعي محمود سلام ، حصون خيبر في الجاهلية وعصر الرسول ﷺ ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ،١٤٠٩هـ /١٩٨٩م ، ص٢٠ ـ ٤٧) .

٣ ـ هي من قرى الحجاز بين الحجر وأول الشام ، وهي عبارة عن حصن به نخيل وحائط ينسب للرسول ﷺ وأصحاب الأيكة ينسبون إليها وتبوك من جبل حسمى وجبل شروري .(ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٢، ص١٤) .

٤ ـ **هي** قرية شمالي تبوك بها نخيل بيتها وبيت الشام ثلاثة أيام . (الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٩).

٥ ـ **هي** من قرى الحجاز وهي قرية صغيرة قليلة السكان ، والحجر من وادي القرى وبها ديار ثمود .(ياقوت، المصدر نفسه ، ج٢، ٢٢١)

٦ ـ **هي** قرية بيتها وبين المدينة يومان أفائها الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ عام ٧هـ / ٦٢٩م . (البلاذري ، البلدان وفتوحها وأحكامها ، ص٥٤ ، ياقوت ، المصدر نفسه ، ج٤،ص٢٣٨)

٧ ـ هي قرية كبيرة على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل ، وبينها وبين ساحل الجار نحو ثلاثة مراحل ، وبينها وبين المدينة ست مراحل ، وكانت تسمى مهيعة فلما اجتحفها السيل وحمل أهلها سميت الجحفة ، وهي خراب الآن . (ياقوت ، المصدر نفسه ،ج ٢،ص١١١)

٨ ـ الأزرقي ، أخبار مكة ، ج٢ ، ص٢٢٠ ، ابن شبه ، تاريخ المدينة المنورة ، ج١، ص١٠٨، عبد العزيز سالم ، تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ص٣٥٢.

وأخيراً يمكن القول إن الازدهار التجاري كان له دور في ازدهار المدن الحجازية والتي نشأت بالأصل كمحطات على طرق القوافل التجارية لتقديم الخدمات التي تحتاجها هذه القوافل من ماء ورعي للإبل ويرجع سبب هذا الازدهار إلى وجود المياه وحصانة الموقع المتوفر لهذه المحطات جميعها سواء مكة ــ التي يمكن إعطاء وصفها بعض الخصوصية لوجود الحرم فيها ، وما استتبع ذلك من مكانة دينية ميزتها عن بقية مدن الحجاز ــ أو يثرب والطائف وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء ، وقد قامت هذه المناطق بتوفير خدمات ضرورية لحركة القوافل مثل التزود بالماء والغذاء المناسب استعداداً لقطع مسافة أخرى داخل هذه الصحراء [1].

ثانياً : الحياة الاجتماعية و الدينية في الحجاز قبل البعثة النبوية :

كان التنظيم الاجتماعي في الحجاز تنظيماً قبلياً في جوهره ، وكان شورياً يخضع لرأي الجماعة ورقابتها ، هذا ولم يكن الحجاز خاضعاً لرئيس أو ملك أو أمير ، وإنما كان عبارة عن إتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض دون أن يكون هناك أي سلطان لواحدة على أخرى أو طاعة مفروضة عليها لأحد وكانت كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ، وكانت كل قبيلة تؤمن بوجود رابطة تجمع بين أفرادها على أساس من وحدة الدم ووحدة الجماعة ، وفي ظل هذه الرابطة و العرف الذي نشأ على أساسها ، يمكن تقسيم القبيلة إلى عدة طبقات اجتماعية وهي :

١ــ **طبقة الأحرار:** أبناء القبيلة الصرحاء : وهم الذين يجمع بينهم الدم الواحد والنسب المشترك .

٢ــ **طبقة الموالي** : وهم الذين انضموا إلى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها عن طريق الجوار أو الحلف أو العتقاء من الأرقاء فيها .

٣ ــ **طبقة الأرقاء** : وهم المجلوبون عن طريق الشراء أو أسرى الحرب . ولقد كان لكل طبقة من هذه الطبقات منزلتها في السلم الاجتماعي ، وبالتالي كان التفاوت الطبقي موجوداً على الرغم من الإحساس بالقرابة ووجود علاقات الحلف والولاء ، وكان هناك إحساس نفسي عام بعدم المساواة ، متمثلاً في الفروق الواضحة بين طبقة الصرحاء والموالي ، ومتمثلاً أيضاً بما تكفله الثروة لصاحبها من إمكانية الوصول إلى مراكز القيادة والزعامة في القبيلة ، ومعنى هذا الكلام أنه

---

١ ـ رياض مصطفى أحمد شاهين ، النشاط الاقتصادي لليهود في الحجاز في الجاهلية وعصر الرسول ﷺ ، مجلة الجامعة الإسلامية ، المجلد الثاني عشر ، العدد الثاني ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م ، ص٢٣ ـ ٢٤ .

كانت هناك طبقات عليا و طبقات سفلى ، وطبقات أشراف وطبقات عوام ، قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[1]

في هذه الآية الكريمة دليل على وجود التفاوت الطبقي ، وتعلن للناس أنهم سواء ولهم الحق في الاستمتاع بحريتهم وحياتهم ، وأن أكرم الناس وأقربهم إلى الله ﷻ هم الذين يؤدون واجباتهم الدينية والدنيوية ، وليس هم العظماء وأبناء البيوت الشريفة أو أصحاب الثروات الطائلة . ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في هذه الفترة ، أن كثيراً من الناس لا يستطيعون الحصول على اللحم بسبب فقرهم ، لذلك كانوا يأتدمون بالودك ــ ودك العظام ــ فقد كانوا يجمعون العظام ويكسرونها ويطبخونها ، ثم يخرجوا الودك[2] الذي يخرج منها ليأتدموا به[3] ، ولم يكن باستطاعتهم أيضاً أكل الخبز لغلائه بالنسبة لهم لذلك عدّ أكله من دلائل الغنى والمال ، وكان منهم من لا يستطيع شراء الملابس ليلبسها ، فيستر جسمه بالثياب البالية والجلود ، لذلك فقد ازدادت أعداد الناس الذين تحولوا إلى رقيق ، لاسيما عندما نشطت الأعمال المصرفية في المجتمعات المدنية التجارية مثل مكة ويثرب والطائف ، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع مكانة النخاسين وتضاعفت ثرواتهم وممتلكاتهم هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ساعدت هذه الظروف على ظهور فئة أو جماعة(الصعاليك)[4]

---

١ ـ سورة الحجرات ، الآية ١٣ ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، (د.ط) ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ت) ، ج٣ ، ص١٢٩ ، حسين الحاج حسن، حضارة العرب في صدر الإسلام ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للنشر ـ بيروت ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، ص٢٤ـ٢٥، عبد العزيز سالم ، تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ص٣٨٣ .

٢ ـ **الودك :** هو الدسم من اللحم والشحم (ابن حبيب البغدادي ، المنمق في أخبار قريش ، تحقيق ، خورشيد أحمد فاروق ، عالم الكتب ـ بيروت ، ص٩٨) .

٣ ـ الصالحي ، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق ، عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض ، ط١ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ج٥ ، ص١٥٩ ، جواد العلي ، المفصل ،ج ٩، ص ٨١ .

٤ ـ يمكن القول أنه في الجاهلية كانت هناك فئة أخرى تسمى (الفتوة أو الفتيان) أي بمعنى الشاب الحدث ، الفتي ، وهي فئة مختلفة عن فئة الصعاليك وإن تلاقتا في بعض الخصال (كالشجاعة والمروءة والكرم ...) فالفتيان هم أولاد الأغنياء من الشباب ، بينما الصعاليك كانوا من أولاد الفقراء ، وكان الفتيان يبغون ويهدفون من فتوتهم السيادة والرئاسة ، بينما الصعاليك كان دافعهم الفقر و رفضوا أن يكونوا عالة على غيرهم أو أن يجعلوا أحد الناس عماداً لهم ، وفيما بعد (في بداية القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري) حدثت تغيرات جذرية في أفكار الفتيان وآرائهم وانخرطت في صفوفهم أناس من أوساط مختلفة ، ولعبوا دوراً مهماً في حياة المدن الإسلامية مستغلين ضعف السلطة المركزية للدولة العباسية والتدخلات الأجنبية ـ أثناء الصراع بين الأمين والمأمون أبناء هارون الرشيد ـ في شؤونها الداخلية . (الأزهري ، تهذيب اللغة ، ج١٤، ص٢٣٤، ألكساندر خاتشاتريان ، أهل الفتوة والفتيان في المجتمع الإسلامي ، تقديم صالح زهر الدين ، ط١،المركز العربي للأبحاث والتوثيق ، بيروت ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، ص٢٢ـ٢٨ ، عبد العزيز محمد ، الفتوة في المفهوم الإسلامي ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ص١٢) .

يقومون بالغارات وقطع الطرق ، فقد انسلخوا عن قبائلهم تعبيراً عن تململهم من الفقر والجوع والشقاء والازدراء الذي كانوا يعيشونه ، وقد عبر عروة بن الورد[١] ــ الذي كان أحد الصعاليك ــ على واقع التفاوت في توزيع الثروة والتمايز الطبقي والاجتماعي ، بقوله :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير

ويقصيه الندي وتزدريه حليلته وينهره الصغير[٢]

أما بيوتهم ومساكنهم فقد كانت متباينة مختلفة ، منها البيوت المتنقلة ، ومنها المباني المبنية بالمدر أو الحجر ، وهي أبنية أهل الحضر وهي مختلفة أيضاً في طرازها المعماري وفي سعتها ومادتها ويكون اختلافها باختلاف مكانها وباختلاف مكانة صاحبها ومنزلته من حيث الغنى والفقر ، والبيت لفظة تطلق على البيوت الكبيرة منها والصغيرة ، والجدير بالذكر أن قرى الحجاز ومدنها كانت عبارة عن أحياء ، تكونت على الطريقة البدوية ، وكانت تسكن كل عشيرة في حي معين من أحياء القرية أو المدينة ، طبعاً في ذلك الوقت كانت البيوت خالية من المرافق الصحية والمغاسل والحمامات وكان على أصحابها قضاء حاجتهم خارج البيوت[٣] .

وكان للعرب آداب في مجالسهم ، كان على كل إنسان مراعاتها وإتباعها ، من ذلك أنه كان لكل بيت مهما كان حجمه أو مكانته حرمة ، وأن على كل إنسان صيانة حرمة بيته وبيت غيره سواء بسواء ، وكانت من عاداتهم إذا زاروا ملكاً أو سيد قبيلة ، لبسوا أفضل وأحسن ما عندهم من لباس ، وتزينوا بأجمل زينة يعرفونها ، منها التكحل والعطور، وكان الأشراف وذوو اليسر منهم لهم ندماء ، يشربون معهم ويقضون وقتهم بالمنادمة ، وهؤلاء الندماء يكونون من المقربين أو من الضيوف الذين تكون لهم مكانة خاصة ، والمنادمة تكون في الغالب على الشراب ، فيشربان مالذ لهما من أنواع النبيذ والخمور ويأكلان ، ثم بعد أن تلعب الخمر بالرؤوس يفضي

---

١ ـ **عروة بن الورد** بن زيد وقيل ابن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هريم بن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس .... بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها . (الأصفهاني ،الأغاني ، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر ، بيروت ،(د،ت) . ، ج٣ ، ص٧٢) .

٢ ـ عروة بن الورد ، ديوان عروة ، تحقيق أسماء أبو بكر محمد ، (د،ط) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، ص٧٩ ، الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق ، فوزي عطوة ، ط١ ، دار صعب ـ بيروت ١٣٨٧هـ / ، ١٩٦٨م ص١٣٠.

٣ ـ ياسين غضبان ، يثرب قبل الإسلام ، ط١ ، دار البشر ، عمان ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ص٣٠ .

الواحد منهما بمكنوناته إلى الآخر، ويتسامران بالغناء فيقضيان وقتً ممتعاً حيث يتصرف كل منهما كيفما يشاء

، وتبعاً لذلك فقد كان عتيبة بن ربيعة بن عبد شمس نديماً لمطعم بن عدي[١] ، وكان أبو سفيان بن حرب نديماً للعباس بن عبد المطلب ....[٢] ، وكان الأشراف إذا أرادوا الترويح عن أنفسهم ، شربوا وسمعوا القيان ، القيان هن الإماء والمغنيات منهن على وجه الخصوص[٣] ، ويمكن تقسيمهن إلى فئتين :

١ــ فئة خاصة حيث يكون عناءهن خاصاً بالسيد المالك لهن ، كقيان حمزة بن عبد المطلب [٤] .
٢ــ فئة عامة وهن قيان الحانات وبيوت اللهو أي أنهن محترفات ، كقيان عبدالله ابن جدعان[٥] ومقيس بن عبد قيس[٦]، وقد كان في بيت مقيس حانة عامة يرتادها فتيان قريش للشرب واللهو والسمر[٧] .

ومن عادة العرب أنهم لم يكونوا يتكلفون في المطاعم والمشارب مثلما يتكلف الأعاجم ،(ماعدا الأغنياء وأصحاب الثراء الفاحش) وكانت من عاداتهم في هذا الباب أنهم يبكرون في الغداء ، ويرون في ذلك أنه أقرب إلى الراحة وصحة البدن ، وكانوا يؤخرون العشاء رغبة فـــي ورود الضيوف[٨] ، وكان إذا جاء إلى أحدهم ضيف ظهرت البشاشة على وجهه وتلقاه بالترحيب والتكريم ، ومن عاداتهم أنهم كانوا يقلون في الأكل ، ويقولون : البطنة تذهب الفطنة " بمعنى الذي تمتلـــئ بطنه بالطعام تذهب منه فطنته" ، ويرون أن قلة الأكل أفضل دواء لصحة الأبدان ، وهم يعالجون

---

١ ـ **مطعم بن عدي** بن نوفل بن عبد مناف أبو وهب ، كان من أشراف قريش . (ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ط١، دار صادر ، بيروت ، ١٣٥٨هـ/١٩٦٦م ، ج٣، ص١٥٥) .

٢ ـ ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص٨٧ ، ابن حبيب ، المنمق في أخبار قريش ، ص٣٦٤، جواد العلي ، المفصل ،ج٧، ص١٣٧ ، ج ٩، ص ٢٩ـ ٥٣ .

٣ ـ ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٣ ، ص٣٥٢ .

٤ ـ **حمزة بن عبد المطلب** بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو عمارة عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب . (ابن حجر العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط١، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ج٢ ، ص١٢١) .

٥ ـ **عبدالله بن جدعان** بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة سيد بني تيم وهو ابن عم والد أبي بكر الصديقﷺ وكان من الكرماء الأجاود في الجاهلية . (ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٢ ، ص٩٦ ، ابن كثير،البداية والنهاية ، تحقيق عماد زكي البارودي ، خيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ج٢ ، ص٢١٧) .

٦ ـ **مقيس بن عبد قيس** بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم . (ابن حبيب ، المصدر نفسه ، ص ٥٩) .

٧ ـ ابن حبيب ، المصدر نفسه، ص٥٩ .

٨ ـ محمد الخطيب ، المجتمع العربي القديم ، ط١، دار علاء الدين ، دمشق ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، ص١٢٥ ، محمد عبد الجواد الأصمعي ، العرب وأطوارهم ، ط١، مطبعة الجمالية ، القاهرة ، ج١ ،ص٢٦١.

البطنة أو السمنة بالحمية ، لأن المعدة بيت الداء و الحمية رأس كل دواء وكانوا يعيبون الرجل الأكول الجشع ، فقد قال شاعرهم :

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل [١]

وشرب الخمر ومجالسه كانا من اللهو المتصل بالحياة الاجتماعية في تلك الفترة ، وقد كان الخمر من متع الحياة الثلاثة بالنسبة للشباب ، والمتع الثلاثة هي الخمر والقمار والنساء ، وربما كانوا يرتكبون المعاصي والمخالفات في سبيل الحصول على المال لإنفاقها على ملاهيهم وملذاتهم ، كما فعل شاب من شباب مكة ، عندما سرق من خزنة الكعبة لينفق على شربه وقيانه ، وقد عرف هؤلاء بـ (الفتيان) ، يقضون أوقاتهم في الشرب والسماع إلى القيان[٢] ويمكن القول أن الكثير من الناس كانوا مدمنين على الخمر، يصنعونه من أي شيء يقع في أيديهم مما يمكن تخميره للحصول على مادة مسكرة منه مثل الحبوب والأعشاب أو حتى اللبن ، وكان أهل المدينة يسقون ضيوفهم شراباً مصنوعاً من البسر والتمر ومن الزبيب والتمر ، فكان عندما يجلس الضيوف في مجلسهم ، يقوم ويسقيهم أحد أبناء صاحب الدار أو خادم من خدمه ، من كؤوس يدور بها عليهم قليلاً قليلاً ، وكانت الخمارات منتشرة في كل مكان ، ولاسيما على الطرق ، حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة ، فكانت منشرة في مكة وسائر القرى ، وكان أصحابها من النصارى أو اليهود في الغالب ، جاءوا من الخارج للتكسب والعيش فامتهنوا مهنة بيع الخمر وإسقائها للناس وقد عرفت الخمارة عند العرب باسم الحانوت[٣] .

وكانت ظاهرة القمار(الميسر) من الألعاب المنتشرة عند العرب ، ومن دوافعها التسلية واللهو والطمع في الربح ، حيث كان القوم يجتمعون فيشترون الجزور ، فيقطعونها إلى عشرة أجزاء ، ثم يؤتى بالقدح وهو أحد عشر قدحاً ، سبعة منها لها حظ إن فازت ، وعلى أهلها غرم إن خسرت ، وثمن الجزور يدفعه الخاسرون (الغارمون) واللحم يوزع على الفقراء ، وكانوا يسمون السهام التي تقذف بأسماء ويجعلون لها مراتب في الربح والخسارة ، ومن أنواع القمار التي كانت متفشية أيضاً الرهان على سباق الخيل[٤] .

---

١ ـ ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص٩٢ـ ٩٤، محمد الأصمعي ، العرب وأطوارهم ، ج١ ، ص٢٥٢ ـ ٢٦٧.

٢ ـ جواد العلي ، المفصل ، ج٨، ص٢٥٣ .

٣ ـ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق عبد المجيد الترحيني ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٩ م ، ج ٣، ص ٢٤ ، محمد الخطيب ، المجتمع العربي القديم ، ص١١٧ .

٤ ـ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق مفيد قمحية وآخرين ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م ،ج٣، ص١١٣، محمد الخطيب ، المرجع نفسه ، ص ١١٨.

ومن الظواهر الاجتماعية التي مارسها بعض العرب هي عادة الوأد ، حيث اعتبروا أن الفقر والخوف من السبي من أهم دوافع هذه العادة ، وكانت هناك دوافع أخرى كالتشوه الخلقي ، مثال ذلك ، كبيرة بنت أبي سفيان وأدت أربع بنين لها ، وبما أنها بنت أبي سفيان فمن المحتم أنها لم تشتك فقراً ، ولم يكن دافعها الفقر ، بل لعل بنيها كانوا ذوي عاهات كتشوه خلقي أونقص في النمو . وقد اعتادوا وأد الشيماء والبرشاء والكسحاء[١] . والجدير بالذكر أن الوأد لم يكن عاماً ومطلقاً على جميع الإناث وإلا لما عاشت أم أو أخت أو زوجة ، فقد كان الوأد محصوراً في بعض القبائل مثل تميم وأسد وهذيل وقليلاً من قريش ، وكانوا يئدون عند جبل أبي دلامة[٢] . وفي المقابل كان هناك العديد من ذوي القلوب الرحيمة والضمائر اليقظة الذين قدروا الإنسانية بفطرتهم واستعظموا جريمة الوأد وأنقذوا عدداً من الموؤدات ، فكان عمرو بن نفيل[٣] يحيي الموؤدة حيث يتكفل الإنفاق على الطفلة إلى أن تكبر ويترك لأبيها الخيار في استرجاعها أو عدمه ، وكذلك اقتدى به ابنه زيد بن نفيل في سنة إحياء الموؤدات حتى بلغ عدد من أحياهن ٩٦بنتاً . وكان صعصعة بن ناجية[٤] من تميم يشتري الموؤدة بثمن يدفعه إلى أبيها قيمته ناقتين وجمل ، وصارت له عادة حتى أحيا ٢٨٠موؤدة [٥] .

أما **الحياة الدينية** عند العرب في أرض الحجاز قبل البعثة ، فقد كانوا على دين إبـــراهيم عليه السلام ، وكانوا موحدين وتقترن فكرة التوحيد بنشأة الكعبة وبإبراهيم وابنه اسماعيل عليهمـــا السلام ، ورفعهما قواعد البيت ، وانتشر التوحيد بين القبائل في مكة وما حولها ، ولعله انتشر منها إلى مناطق أخرى في شبه الجزيرة العربية ، فيعتقد أن بلاد العرب عرفت التوحيد منـــذ النـــصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد [٦] حتى جاءت قبيلة خزاعة ــ وهي إحدى قبائل الأزد اليمنيـــة

---

١ ـ ابن حجر العسقلاني ، الإصابة ، ج٨ ، ص٩٣ ، الآلوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، عني بشرحه وضبطه محمد بهجة ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م ، ج٣ ، ص٤٣ .

٢ ـ **أبي دلامة :** جبل مطل على الحجون بمكة ، والأدلم من الرجال الطويل الأسود ، و من الجبال كذلك في ملوسة الصخر غير حد السواد ، وأبو دلامة اسم شاعر . (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٥٩) .

٣ ـ **عمرو بن نفيل** بن عبد العزى بن عبدالله بن قرط بن رياح بن رزاح ابن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك . (ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٥١ ، ابن الأثير ، أسد الغابة في ، ج٢ ، ص٣٥٣) .

٤ ـ **صعصعة بن ناجية** بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، يقال أنه أحيى فى الجاهلية ثلثمائة وستين موؤدة وقيل أربعمائة وقيل ستاً وتسعين موؤدة فلما أسلم قال له رسول الله ﷺ لك أجر ذلك إذ من الله عليك بالاسلام . (ابن سعد ،الطبقات ، ج٧ ، ص٣٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٨، ص٦٣) .

٥ ـ الأصفهاني ، الأغاني ، ج١٠ ، ص٢٨٣، عواطف أديب ، قريش قبل الإسلام دورها السياسي والاقتصادي والديني ، دار المريخ ، الرياض ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص١٢٨ـ١٢٩ .

٦ـ منصور عبد الحكيم ، بلاد الحجاز ، ط١ ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م ، ص١٢٥، عبد الرحمن الطيب الأنصاري ، الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، ط١ ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، المجلد الثالث ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م ، ج١ ، ص٩ .